التباين الخلقي

أمراض النفس — خور العزيمة والبخل

بسطت في مقالي السابق فضل التربية في تقويم النفوس المنحطة التي تشب على الشرور وبيّنت ما لها من قوة جذابة للتحلي بالكمالات والفضائل. وربما يكون من المفيد في المستقبل تبيان شأنها في انهاض الامم وتكوين الحضارات في مقال على حدة

وقد يحار الباحثون — وهذا اثر التربية وفعلها في النفس مما دل دلالة كافية على المرونة النفسية الفطرية للتطبع حسب تباين الطوارىء والمؤثرات الخلقية — في تعليل تطرف فلاسفة الاخلاق فيما تطوحوا فيه من المبادئ ومنهم ريبو Ribot القائل: « ان السجية الحقة لن تكون الا فطرية » ولوبون Lebon القائل: « قلما تقوى التربية على تحويل الشعور. اذ الشعور عبارة عن تراكم صفات متوارثة على طول الزمن من جد لاب لابن لحفيد الى ان تنتهي بمولود يظهر على سجايا خاصة هيهات للتربية ان تزعزع من اصولها او تهد من اركانها او تمحو آثارها »

اذ من البديهي ان في هذه الآراء من التطرف ما لا يحتمل التسليم به لمخالفته للواقع واقل ما فيه نكران فضل التربية في تطهير الاخلاق مما يكون فيها من ادران. بل فيها نكران واضح لما ينجم من النقائص والمفاسد عن الوسط المنحط الملوث بالجرائم والآثام التي تصاب بها النفس بصرف النظر عن منشإها حتى لو كان شريفاً راقياً

واضحى من البديهيات التسليم بأن الوسط الفاسد قطعة من الجحيم يحرق بلظاه نسيج الغرائز الشريفة الموروثة وغير الموروثة ويشل ارادتها عما يثيره في الروح من الشهوات المنحطة التي تبعد المرء عن طريق الاعتدال والاستقامة وتميت ضميره وتدفعه الى الاستخفاف بمراجعة العقل واستشارته قبل الاقدام على اي عمل كان مهما كانت معيبة. وتذهب عنه نضارة الحياء فيقدم على النقائص والمزريات بلا خجل ولا وجل ولا رادع وحين ذلك تمرض ارادته فتصاب بامراض شتى تسمى بالامراض النفسية تتسمم بها الى ان تموت

والامراض النفسية كثيرة نذكر هنا منها ما كان شديد الاثر في الانحطاط الذي اصاب الشرق وكان من اهم اسباب سقوطه وفقدانه حريته واطفاء جذوة ذكاء ابنائه

الذي يرجع الى تألقه تمدن العالم الانساني وخروجه من طوره المادي الهمجي الى طور الفكر والابتداع والاكتشاف والعمل فنقتصر على ذكر مرضين : خور العزيمة والبخل

خوَر العزيمة

خور العزيمة ضعف يصيب الارادة مباشرة فيقعدها عن واجبها ويصرفها عن الذود عن حقها والتمسك بحريتها وكرامتها اذا هددتها المطامع من قبل الطغاة الذين لا يعبأون بالشرائع والانظمة ولا يخشون الله في تعسفهم واضطهادهم للناس وما لهم من حق في الحياة الكريمة. والمصابون بهذا المرض يستهدفون الى الاستسلام لارادة الغير التي لا تتفق ومصالح المجموع فيفتك المرض بمصدر الحكم من الباهم ويصيب النفس في مركزها العصبي المعد للتقدير والتكييف واعطاء الاشياء حقها وخاصة ما كان له علاقة بتهذيب النفس وتخلقها بالفضائل والمحامد التي تبث في النفس معاني الرجولة الصحيحة . ولم يقتصر هذا المرض في الشرق على هذه العواقب المنهكة للصفات بل كان فيه سبباً لتفشي الرياء والكذب والوشاية وهي مناقص شائنة لا زلنا نراها سائدة في بلاد كثيرة شرقية بعد ان هاجرت بلاد الغرب من زمان بعيد فعبقت اخلاق رجاله بعبق الازهار والرياحين

وكما يصيب هذا المرض الافراد يصيب الحكومات التي تتغلب فيها كلمة الفرد على كلمة المجموع وحين ذلك يكون من اهم اعراضه القيام بالحكم بواسطة نفر استعاضوا العلم والمقدرة بالرياء والزلفى وتقديم المصلحة الفردية على المصلحة العمومية . فتنقلب السياسة المدبرة للحكم شر منقلب وتصبح سياسة هدم وتخريب بدلاً من ان تكون سياسة انشاء اهم اغراضها فائدة الجمهور وتدبير شؤونه فيهجر هذا الوسط الموبوء العلماء والدهاء والمفكرون والمتكرون والخيرة والاحرار لكثرة الضغط عليهم ويبقى فيه المحترفون يفسدون فيه وتنفسح امامهم منافذ واسعة للانتقام من منتقدي اعمالهم الجائرة وخيانتهم امانة واجباتهم الحكومية . ويكون العهد عهد مفاسد تنخر من هيكل الوطن ومرافقه واموالهِ ما ينخره السوس في البذور فتسقط كرامة الامة وهيبتها ويطمع فيها كل طامع

هذا ما تراهُ يجرع حالاً بالشرق وكان جزاء وفاقاً لخاري العزيمة من رجالهِ وجزاء كذلك وفاقاً لكل حكم قام على المصلحة الفردية دون المصلحة القومية ، وهو هو الذي يعاني الشرقيون الآن الخروج من ويلاته بكل ما يملكون

كل هذه الويلات كانت عواقب ذلك المرض الذي اصاب رجال الشرق في عزائمهم . اما لو انهم يربون ارادتهم على الثبات والمضاء في حقوقها والتمسك بها والاقدام على اعمالها

غير هيابة لما يعترضها من العوارض والمطامع وتعلمت كيف تتلافاها وتحتقرها وتذللها بحنكة ودهاء وذكاء فان نصيبهم لا شك يكون القبض على ناصية الامور يكللها النسق في مضمار التزاحم لا فرق بين الفرد او الحكومة ويكون لهم منه الشرف الذي لا يقدر

هذا وفي تقوية العزيمة فوائد جمة اهمها انضاج النفس . ومتى تم للنفس نضوجها فانها تستقي مادتها من ينبوع لا ينضب له نبع ولا ينقطع له جريان بحيث لو انعدم منها شيء من غير طائل تجددت قوى اكثر غزارة واوفر تدفقاً من الاولى الى ان تصيب هدفها وتنال مطلبها فتهنأ وتستريح

ولا غرو فتى تقوت الارادة لدى فرد تساوت في نظر صاحبها الامور كلها صغيرها وكبيرها ، سهلها وصعبها ، حقيرها ونفيسها ولا يخيفهُ من عواقبها شيء مهما عظم وخطر بل يملي عليها ارادتهُ املاء الجندي الظافر على عدوه المقهور الذي يلقي بين يديه سلاح الامان والتسليم لشروطه ورغباته ولقد صدق الحكيم القائل :

لا يرتقي شعب بغير عزائم والفلك لا تجري بغير شراع

البخل

ان السعادة التي نرجوها لحياتنا ننالها بشيئين : العلم النافع والعمل الصالح . فواجب الشبيبة ان تسعى الى هذا الخير وتفقه ان سعادتها رهن وضعها هاتين الوسيلتين نصب عينها وتذكر ان الدنيا التي تعيش فيها دار فكر وعمل وكدح تحتاج الى نشاط ويقظة وان المال الذي ابتكرهُ الانسان جاء ليكون سبب الهناءة لصاحبه وسبيلاً الى المصلحة العامة . فهو قوة لازمة لخير البشر يسعى اليه الانسان بجوارحه وبالعمل الشريف ليعيش بكرامة وشرف ويسد حاجته وحاجة اولاده واهله ويعاون به اخوانهُ في الانسانية وهذا يحسن للتصرف فيه . اما اذا أُسيء التصرف فيه فانهُ ينقلب الى ... ويصبح من اكبر اسباب الشرور والآلام . هذا والارض التي نعيش عليها خيراتها وافرة باطنها وظاهرها لا تعد ولا تحصى اعدت كلها متاعاً للانسان متى كد وسعى وعمل معتمداً على حرفته او مهنته او علمه الذي يضيء امامه طريق العيش اضاءة نور النهار للعين المبصرة

فالمال وسيلة ترمي الى غاية ، هي سد حاجات الفرد وحاجات المجموع . هي الاستعانة به على محاربة الشرور التي ابتكرتها الجهالة او البطالة أو الخرافة او الجريمة او التي أوجدتها الطبيعة فتخفف آلامها المادية والادبية وغايتهُ ايجاد وسائل التعاضد البشرية والتكامل الانساني بجميع مستلزماتهما ومقتضياتهما وتمهيد اسباب التمدن والحضارة في

العالم بتشييد منارات العلم والصناعة في انحائه وتربية النفوس على ان تتضامن بعضها مع بعض في السراء والضراء وترتبط باواصر الاخاء وتتعامل بالرفق والرحمة والحسنى وصفاء النية والامانة وتتعاون حتى تكافح الاحقاد وتمحو العداوات وتستأصل جذورها والفاقات والامراض وتخفف من وطأتها وتسهل الحياة اجمالاً للنوع الانساني

فهذه الغايات السامية لا يعرفها الاّ الممتازون الكرماء من بني الانسان اصحاب الارواح النبيلة التي تقوم بالاعمال الجيدة حبًّا للمصلحة العامة ولخير الانسان

اما البخلاء فانهم يجهلونها جهلاً تامًّا لان نفوسهم مصابة بمرض ابعد في نتائجه من خوَر العزيمة وهذا المرض يدفعهم الى التلذذ بالحرمان من تلك الخيرات التي اعدها الله متاعاً حلالاً للأحياء حرماناً يشمل ذواتهم ويتعداهم الى غيرهم من ابنائهم واهليهم ومعارفهم والناس كل بحسب ما يحتاج اليه

فالبخل مرض قتال يحبب الى النفس التلذذ بالحرمان تلذذها بجمع كنوز الارض وتكديسها واعتقالها في مكان ضيق لا تصل اليه يد انسان . ولا يتناولها اخذ ولا عطاء ولا يتمتع بها صاحبها ولا يدع غيرهُ يتمتع بها ، ويضع هذا المرض على عين المصاب به غمامة لا تجعلهُ تبصر عناية الله من ايجادها النعم على الارض بل تدفعهُ الى معارضته في مشيئته بان يقبض عليها ويحرم نفسهُ والناس منها . هذا ومن اخطر اعراض ذلك المرض قلب الغاية لتكون وسيلة والوسيلة لتكون غاية . فان المال وسيلة ترمي الى الغايات السامية التي اسهبنا الكلام عليها . وبالمال واحسان التصرف فيه انقلبت الارض في بلاد الغرب واميركا غير الارض وازينت واخذت زخرفاً بديعاً من صروح جميلة ومتنزهات وحدائق زاهية بهيجة منسقة تظللها الاشجار من جوانبها وتتخللها دور التربية والتعليم ودور الصناعات والمتاجر والمستشفيات المجانية ودور العجزة والشيوخ واليتامى والاطفال المعوزين

وباعمالهم الجيدة علمنا رجال المال سواء في اميركا او اوربا قوة المال في الذهاب بالحضارات الى الامام وترقية التربية وتعميمها والعناية بالعقول الى اعلى المراتب وتخفيف مصائب الانسانية بما يدعو الى تسجيل الفخر الابدي لهؤلاء الاساتذة الذين برهنوا باخلاقهم المتينة ومداركهم الواسعة التي تعمل للخير العام واملوا علينا دروساً في العظمة تنال بالمبرات

فهل لبخلاء الشرق ان يتأثروا بشيء من تلك الاعمال

عثمان مرتضى

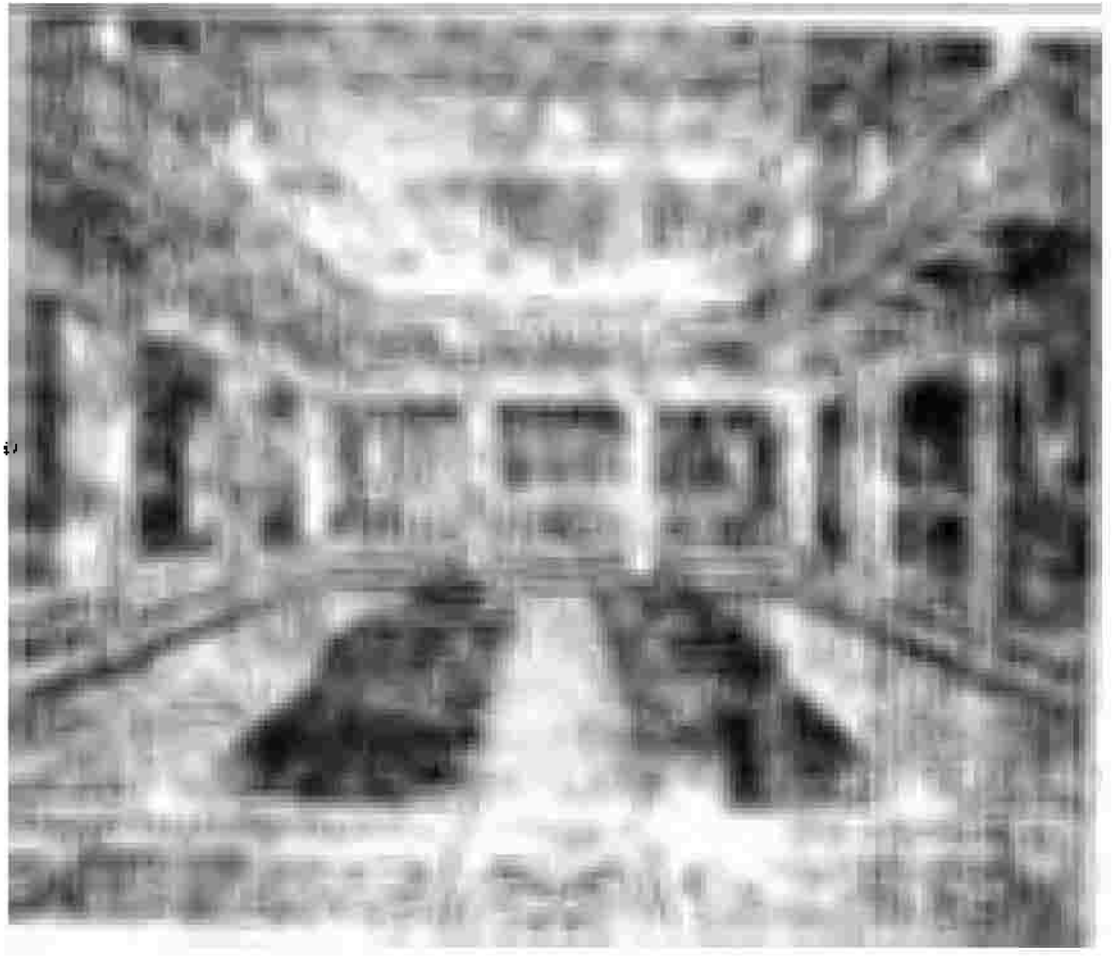

١٩٢٨

٨٥